﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذَكر الله تعالى القِسم الصَّالح من الأعرابِ، وهم الذين يَتَّخِذونَ ما ينفِقون قُرباتٍ عند الله وصلواتِ الرَّسول، وما أعدَّ لهم من الثَّواب؛ بَيَّنَ أنَّ فوق منزلتهم منازلَ أعلى وأعظم منها، وهي مَنازِلُ السَّابِقِين الأوَّلِينَ من المهاجرين والأنصار، والذين سلكوا سبيلهم، وساروا على نهجهم[1].

السَّابقون إلى الإسلام هم أصحاب المنازل البهيَّة، والرُّتب العليَّة

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: السَّبْق: التَّقدُّم في الجري وفي كلِّ شيء، يقال: سَبَقَه يَسْبِقه سَبْقًا، أي: تقدَّمه[2]. ومعناه المحوريُّ يدور حول تقدُّم الشَّيء على غيره من بين من حوله[3]. ويقال: لفلان سابقةٌ في هذا الأمر: إذا سبق الناسَ إليه[4]. والسابقون في الآية: "المتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصالحة"، وهم "المحرِزون قصبَ السبق في الفضل"[5].

2) ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: الهجر: ضدُّ الوصل، وهو "مفارقة الإنسان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/494، وابن عادل، اللباب: 10/185.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبق).

غيرَهُ إمّا بالبدن أو باللِّسان أو بالقلب"[1]. وأصله يدلُّ على القطيعة والقطع[2]، ومنه كذلك التَّهاجر بمعنى التَّقاطع[3].

ومنه أيضًا الهجرة والمهاجرة، وهي الخروج من أرض إلى أخرى، "وأصلُ المهاجرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدن". ويقال: هاجر الرَّجلُ؛ إذا فعل ذلك، وكذلك كلُّ من ترك مسكنه، وانتقل إلى قوم آخرين؛ فقد هاجرَ قومَهُ، والمهاجرون هم الذين ذهبوا مع النَّبيِّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة، وسمُّوا بذلك؛ لأنَّهم خرجوا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وفي هذا تركٌ لديارهم ومساكنهم التي نشؤُوا بها، ولُحُوقٌ بدار أخرى ليس لهم بها أهلٌ ولا مال[4].

3) ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾: النَّصر: إعانة المظلوم، والمَنَعَة له من الظّالم[5]. وأصله من الإمداد بما فيه زيادةٌ وقوَّة وإتيانُ الخير وإيتاؤُهُ للآخرين[6]. "وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[7]، وتفسيره: أن يمنعه من الظُّلم؛ إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا؛ أعانه على ظالمه"[8].

ونصرةُ اللّه للعبد: إعانته، ونصرةُ العبد للّه: هو إعانته لعباده وأنبيائه، والقيام بحفظ دينه وحدوده[9]. "والأنصار: جماعةُ النّاصر، وأنصار النبي ﷺ: أعوانُه"[10].

والمراد بهم في الآية: أهلُ المدينة الذين هاجر إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وهم ينتمون إلى قبائل الأوس والخزرج، وفيهم يقول ﷺ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنّاسُ دِثارٌ، ولولا الهجرةُ؛ لكنتُ امْرَأً مِنَ الأنصارِ»[11].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، برقم: (2443): 3/128.
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(9) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نصر).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(11) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1061)، واللفظ له، والبخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4330).

4) ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾: الحَسَن: ضدُّ القبيح، وهو الجمال، وهو الشَّيء المرغوب فيه، المبهج لكلِّ من ينظر إليه، تقول: حَسُن الشيءُ، يحسُن حُسْنًا، فهو حَسَنٌ[1]. وأصله: نقاء الشَّيء بخروج ما يشوبه منه[2].

والإحسان: ضدُّ الإساءة، وفسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأله جبريل عن الإحسان، بأنَّه: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنَّهُ يراك»[3]، وأراد بالإحسان هنا الإخلاصَ الذي هو شرط للإيمان والإسلام معًا، وكذلك مراقبةُ الله، وحسن طاعته[4]، "وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، أي: باستقامةٍ وسلوك الطَّريق الذي درج عليه السَّابقون"[5].

5) ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الفوز: الظَّفَر بالأمنيَّة والخير، والنَّجاة من الشَّرِّ[6]. وأصله: عبور مسافة على سبيل النَّجاة[7]. ومنه كذلك المفازُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. أي: فوزًا[8]. والمفازة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. أي: بمنجاة من العذاب[9].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

والسَّابقون الأوَّلون من الرَّعيل الأوَّل إلى الإيمان بالله ورسوله من: المهاجرين من مكَّة إلى المدينة نصرةً للإسلام والمسلمين، ومن الأنصار أهلِ المدينة الذين هاجرَ إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وآووا إخوانهم من المهاجرين إليهم، وآزروهم، ومن التَّابعين لهم بإحسان في الإيمان بالله ورسوله، والهجرةُ من دار الحرب إلى دار الإسلام، هؤلاء جميعًا قد ﷺ بقَبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ورضوا عنه سبحانه لِما أجزلَ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (50)، واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (9).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فوز).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

لهم من الثَّواب على طاعتِهم وإيمانهم، وبما نالوه من نِعَمِهِ الدِّينية والدُّنيويَّة، وقد أعدَّ لهم سبحانه بساتين تجري، وتسيل تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وهم ماكثون في تلك البساتين والجنّات زمنًا لا نهاية له ولا انقضاء، وذلك هو الفوز والظَّفر الجسيم الذي لا فوز وراءه[1].

الثناءُ على ثلاثِ طوائفَ من المسلمين، ولأهل السَّبْق في الإسلام المكانةُ العُظمى، والثَّواب الأجزل

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى تزكيةِ الصحابة ﷺ وتعديلِهم، والثناءِ عليهم؛ ولهذا فإنَّ توقيرَهم من أصول الإيمان، وإلى فضلِ التابعين لأصحابِ رسول الله ﷺ إن أحسَنوا المتابعة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية على الآية السابقة:

بيانُ القدوة الصّالحة والمثَلِ الكامل في اليقين يهوِّن الطَّريق على السّالكين

عطفتِ الواو جملةَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ من باب عطْفِ الخبر على الخبر، فبعد أن بيَّن الله تعالى صفاتِ الأعراب، وقسَّمهم إلى كافرين ومنافقين ومتربِّصين ومؤمنين؛ ذكر سبحانه السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، وقد حسُن الوصلُ لما بين الجملتين الكريمتين من الاتفاق في الخبريَّة، والمناسبة المعنويَّة.

وتظهر بلاغة هذا الوصل في أنَّه عقَّب ذِكْرَ الفِرَقِ المتلبِّسة بالنَّقائص على تفاوتٍ بينها في ذلك بذِكر القدوة الصّالحة والمثَلِ الكامل في الإيمان والفضائل والنُّصرة في سبيل الله؛ ليحتذيَ متطلِّبُ الصّلاح حذوَهم، ولئلّا يخلوَ تقسيم القبائل السّاكنة بالمدينة وحوالَيها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراء الفِرَقِ وأحوالها[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/637، والبغوي، معالم التنزيل: 4/88، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/177، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/95، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/19 - 20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/17.

وجُوِّز أن تكون الآية معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ﴾ [التوبة: 99]، أي: ومنهم السَّابقون، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ عطْفَ جملةٍ على جملة، ويختصُّ الرِّضوان بالسّابقين والتّابعين.

وعلى الجملة يحصل من النَّظْم مراتبُ الصَّحابة على خمس طبقات؛ لأنَّ السَّابقين: إمّا مِن المهاجرين، وإمّا مِن الأنصار، والتَّابعين: إمّا منهما، وإمّا مِن غيرهما[1].

معنى (أل) في: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ للعهد الذِّهني؛ إذ المخاطَبون بذلك يعرفون السّابقين الأوَّلين إلى الإسلام والهجرة والنُّصرة، وهذه المعرفة الثَّابتة في الأذهان قد دلَّت على مزيَّة وفضيلة لهؤلاء الأجلّاء الذين صاروا - بسبْقِهم غيرَهم إلى الدِّين وبتضحياتهم وبَذْلهم - معروفين مشهورين اشتهارَ الأسوةِ بين الخلائق.

السَّبقُ إلى أعظم بذْلٍ وتضحية يرفع صاحبَهُ إلى مراتب الأسوة السّامية

وهذا التَّعريف أفاد التَّعظيم، ولا سيَّما أنَّه ورد في سياق المدح، فضلًا عن أنَّ "السَّبق في الهجرة وصفٌ مناسب للتَّعظيم"[2]، "وإنَّما مدح السَّابقين؛ لأنَّ السّابق إمامٌ للتّالي، والفضلُ للمتقدِّم"[3].

دلالة وصفهم بـ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾:

الوصفُ بالأوَّليَّة يفيد أنَّهم تقدَّموا غيرهم لنيل هذا الفضل، وأنَّ مَن جاء بعدهم صار تبعًا لهم ومؤتمًّا بهم، فهم سابقون في الإيمان، مبادرون إلى التَّصديق وقبول الأحكام، وهم الأوَّلون الأقدمون بمتابعة الرَّسول ﷺ[4]، فهم أوَّلون بالنِّسبة إلى سائر المسلمين[5].

أوَّليَّةُ السَّبق إلى نصرة الدّين ونيل المعالي منقبةٌ لا تُبَزُّ ولا تُسامى

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/339.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/491.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/317.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/9.

وهنا تبرز دلالة إضافة هذا الوصف لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ إذ إنَّ الأوَّليَّة - بحدِّ ذاتها - قد تخلو من المنافسة والاستباق؛ كأوَّليَّة الجَدِّ على الأب، وأوَّليَّة الأب على الولد.. وهكذا. أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فقد دلَّ على التَّنافس والبذل والتَّضحية؛ فهؤلاء الأكابرُ قد دُعُوا إلى هذا الدّين، كما دُعِي غيرُهم، فأسرعوا هم، وأبطأ غيرهم، فسبقوا، وكانوا بذلك الأوَّلين، وكفى بها منقبةً!.

والحاصل أنَّه لمّا دلَّ على سَبْقهم بالعلوِّ في مراتبه؛ دَلَّ على قديم دخولهم فيه، فقال: ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: إلى هذا الدّين القيِّم[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾:

سبْقُ الفاضلِ الشَّريف شرفٌ وفضل ومكرُمة

يختلف معنى ﴿مِنَ﴾ بحسب الاختلاف الوارد في تعيين المرادِ بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هل هم جميع الصَّحابة رضوان الله عليهم، أو هم السّابقون بالهجرة، والسّابقون بالنُّصرة دون اللّاحقين منهم؟ فلو قيل: إنَّ المراد بهم جميعُ المهاجرين والأنصار مِمَّن أسلم من قبل الفتح، وقاتَل، ومَن أسلم من بعد الفتح، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم جنس الصَّحابَة على مَن عداهم من التّابعين وتابِعيهم، حيث أدركوا رسول الله ﷺ، وحصل لهم السَّبق بإدراكه وصحبته ﷺ، فالمدح الحاصلُ في هذه الآية يتناول جميع الصَّحابة؛ لأنَّ جملة الصَّحابة موصوفون بكونهم سابقين أوَّلين بالنِّسبة إلى سائر المسلمين، أي: والسّابقون الأوَّلون الموصوفون بوصفِ كونِهم مهاجرين وأنصارًا.

ولو قيل: إنَّ المراد بهم بعضُ الصَّحابة، كأهل بدر، وأُحُد، والعقبة، والسَّمُرَة، حيث سبق بعضهم بعضًا بما نالوا من الكرامة التي لم تحصل لغيرهم، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وعلى هذا فإنَّ المدح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/7.

الوارد في الآية لا يتناول إلَّا قدماء الصَّحابة، وقد اختار كثيرون هذا الثاني[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ لبيان الجنس، فهي تشمَل جنسَ المهاجرين: وهم الذين هاجروا من مكَّةَ إلى المدينة، وجنسَ الأنصارِ: وهم أهل المدينة الذين آووا النبي ﷺ، ونصروه.

الهجرةُ بالدّين والسَّبق إلى نصرته أشرفُ الألقاب، وأعزُّ الأنساب

"والأنصار: اسمٌ إسلامي"[2]، "غَلَب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ في حياته أو بعد وفاته، وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان"[3]. وخصَّت الآية من الفريقين: السَّابقين الأوَّلين.

دلالة العطف في: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

العطفُ بالواو يقتضي اشتراكَ المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب والمعنى، حتى يكون الثّاني داخلًا فيما دخل الأوَّل فيه من المعنى المذكور للأوَّل في الجمع والتَّفريق[4]، "والواو الجامعة تُصيِّر ما قبلَها وما بعدَها بمنزلة شيءٍ واحد"[5].

المعطوفُ على العظيم عظيمٌ

وهذه هي دلالة العطفِ هنا، حيث جعلت الآيةُ السَّبقَ إلى الإيمان بالدّين، وبذل الغالي والنَّفيس في سبيل نُصرته وتأييده وتبليغه؛ فضيلةً عظيمة اشترك في الظَّفَر بها السّابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

دلالةُ تقديم المهاجرين على الأنصار:

ظاهرُ تقديم المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129، والطيبي، فتوح الغيب: 7/337، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/486.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/236.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 2/330.
(5) أبو حيان، التذييل والتكميل: 9/233.

﴿ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم أفضل منهم، وهو الذي تدلُّ عليه قصَّة السَّقيفة، أمّا الأنصار؛ فقد جاء في فضلهم ما لا يحصى من الأخبار[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة المتواترة في: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾:

نصرة الدّين لا تتأخَّر بصاحبها عن فضيلة، ولا عن منقبة جليلة

يجوز في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ وجهان: الجرُّ، والرَّفع، فالجرُّ عطفٌ على ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، والرَّفع عطفٌ على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وبالوجهين قُرئ في المتواتر، فالجرُّ قراءة الجمهور، والمعنى: والسَّابقون الأوَّلون من المهاجرين ومن الأنصارِ.

وعلى هذه القراءة يكون الأنصارُ قسمين: سابقًا أوَّلًا، ولاحقًا غيرَ أوَّل، ويكون المخبرُ عنهم بالرضا سابقيهم.

وأمّا قراءة الرَّفع؛ فهي قراءة يعقوب، والمعنى: والسّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والأنصارُ، فيكون الأنصارُ جميعُهم مندرجين في هذا اللفظ[2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾:

اللُّحوق بموكب الأجــلّاء يسِـمَ صاحبه بشِيَم النُّبلاء

العطف يقتضي مغايرةً يحصل بها فائدة[3]، والعطفُ بالواو يفيد الجمع والتَّشريك، حيث تشرك بين ما قبلَها وما بعدَها في اللفظ والمعنى[4].

ومن هنا تظهر بلاغة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ على ما قبله؛ فإنَّ هذا دلَّ على إلحاق هؤلاء التَّابعين بإحسان بمَن قبلهم من السّابقين في الفوز برضا الله تعالى، وبالجنّات التي تجري تحتها الأنهار، وهذه فضيلةٌ عظيمة ومنقبة جسيمة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/466، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/495، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/280.

(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/400، والأزهري، شرح التصريح: 1/232.

(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 463، والمالقي، رصف المباني، ص: 473.

إضافة إلى أنَّ هذا العطف - باقتضائه المغايرةَ - قد دلَّ على أنَّ التّابعين بإحسان غير المهاجرين والأنصار[1].

وقد رُوي أنَّ عمر بن الخطّاب ﷺ كان يقرأ هذه الآيةَ بإسقاط الواو، هكذا: (والأنصارُ الذين اتَّبعوهم)، فيجعل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ نعتًا للأنصار، على معنى أنَّ المهاجرين قد سبقوا أوَّلًا، وأنَّ الأنصار قد اتَّبعوهم بإحسان، حتّى ردَّه أُبيُّ بن كعب ﷺ إلى القراءة الصَّحيحة. وكان عمر ﷺ يقول: "لقد كنتُ أُرانا رُفعنا رفعةً لا يبلغها أحدٌ بعدنا"[2].

فالحاصل أنَّ الله ﷻ ذكر في هذه الآية ثلاثَ طبقاتٍ من الأمَّة هي خيرها: السَّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والسَّابقون الأوَّلون من الأنصار، والذين اتَّبعوا هؤلاء السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنُّصرة، حال كونهم محسنين في أفعالهم وأقوالهم[3].

وهذا التَّقسيم لم يكن ليحصل بدون العطف، فضلًا عن أنَّه فتح الباب واسعًا ليدخل في زمرة التَّابعين كلُّ مَن سار على خُطا الصَّحابةِ رضوان الله عليهم في الإيمان والتَّسليم والتَّضحية والعمل الصّالح إلى يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

يفيد التَّعبير باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ قصْرَ مدلول الصِّلة عليه؛ كما أنَّ افتقاره إليها، وطلبَهُ إيّاها، جعله مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا، بل لا يحصل له معنى أصلًا إذا جُرِّد عنها، علاوةً على أنَّ الصِّلة لا بدَّ أن تكون أمرًا معروفًا[4]، فهذا التَّعبير بالاسم الموصول - إذًا - ضربٌ من ضروب التَّوكيد.

اتِّصاف الموصول بـما تضمَّنته الصِّلة من وصفٍ عظيم يدلُّ على أنَّه عظيم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/642.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/640.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/20.
(4) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 305.

فضلًا عن أنَّ الاسم الموصول من المعارف، والتَّعريف في سياق المدح يفيد التَّعظيمَ، كما أنَّه قد يُتَّخذ اسمُ الموصول مع صلته ذريعةً لتعظيم الموصوف به؛ إذ اتِّصافه بما تضمَّنته صلة الموصول من وصفٍ عظيمٍ أمرٌ يدلُّ على أنَّه عظيم[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير باسم الموصول وصلته أفاد الإشارةَ إلى أنَّ الوصف الذي دلَّت عليه صلة الموصول: هو علَّة بناء الحكم في الجملة، أي: هذا الجزاءُ الكريم لهم إنَّما هو بسبب اتِّصافهم باتِّباع السّابقين الأوَّلين بإحسان[2].

معنى الباء في: ﴿بِإِحۡسَٰنٍ﴾:

"الباء للملابسة"[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾، أي: متلبِّسين بإحسان في الاعتقادِ والأفعال والأقوال؛ اقتداءً منهم بالسّابقين الأوَّلين، والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة[4].

رِداءُ الإحسان يزيد لابسَه بهاءً سابغًا، وجمالًا بالغًا

وفي هذا إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذه الباء جعلت الإحسانَ كالحُلَّة السّابغة التي تزيد لابسها جمالًا وبهاء، وهذا تعظيم لشأن الإحسان والمحسنين.

نكتة تنكير ﴿بِإِحۡسَٰنٍ﴾:

جاءت كلمة ﴿بِإِحۡسَٰنٍ﴾ نكرةً لتفيد شيئين: أحدهما: العمومُ، فهي تعمُّ كلَّ ما يصحُّ أن يطلق عليه إحسان، "والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة"[5].

التَّنكير في سياق المدح يفيد التَّعظيم

والآخر: هو التعظيم، أي: تعظيمُ هذا الإحسان؛ إذ السّياق سياقُ مدح وثناء.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97، والشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/94.

فائدة القيد ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

"يُلاحَظ أنَّ الاتِّباع المطلوب هو الاتِّباع بإحسان، أي: إحسانُ الأعمال والنّيّات والظَّواهر والبواطن، أمّا الاكتفاء بظاهر الإسلام؛ فلا يحقِّق شرط الإحسان"[1].

ليس كلُّ اتِّباع محمودًا، بل بإحسان التّابع وصلاح المتبوع

"وإنما قيَّد هذا الفريق خاصَّة؛ لأنَّ السّابقين الأوَّلين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتَّبعوهم؛ فمِن بينهم مَن آمن اعتزازًا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة، فمنهم مَن آمن، وفي إيمانه ضعفٌ وتردُّد، مثل المؤلَّفة قلوبهم، فربَّما نزل بهم إلى النِّفاق، وربَّما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى: ﴿*لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [الأحزاب: 60]، فإذا بلغوا رتبةَ الإحسانِ؛ دخلوا في وعد الرِّضا من الله وإعداد الجنّات"[2].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ:

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ في موقع الخبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا أظهرُ ما قيل فيه[3].

عمومُ رضا المنّان عن أهل السَّبْق بالإيمان، وعن تابعيهم بإحسان

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ هذا الخبر يصدق على المبتدأ، وعلى ما عُطِف على المبتدأ، وعليه فإنَّ "قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يعمُّ الكُلَّ"[4]: الصَّحابةَ سابقيهم ولاحقيهم، ومَن تبعهم بإحسان، ويدخل في ذلك التابعون ومَن بَعدهم إلى يوم القيامة بشرطِ الإحسان، "ومعنى هذه الآية الحكمُ بالرِّضا عنهم بإدخالهم الجنَّةَ وغفرِ ذنوبهم، والحكمُ برضاهم عنه في شكرهم وحمْدِهم على نعمِه وإيمانهم به وطاعتهم له"[5]؛ "فيا ويلَ مَن أبغضهم (الصحابة)،

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 11/21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/495، والسمين، الدر المصون: 6/109، وابن عادل، اللباب: 10/184.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/292.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.

أو سبَّهم، أو أبغض، أو سبَّ بعضَهم! ولا سيَّما سيدُ الصحابةِ بعد الرسول وخيرُهم وأفضلُهم، أعني الصديقَ الأكبرَ والخليفةَ الأعظم أبا بكر ابن أبي قُحافة، رضي الله عنه"[1].

بلاغةُ تقديم المسند إليه على المسند:

تـثـبـيـت قـلـب المـؤمـن يـزيـده إيمانًا، وفضْحُ المـنـافـقِ يـزيـده خِذْلانًا

في تقديم المسند إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ على المسند ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهو خبره الفعليّ لقصد التقوّي والتَّأكيد[2]. والمقام الدّاعي إلى تقوية الحكم هاهنا هو الردُّ على المنافقين الذين يلمِزون المطَّوِّعين من المنفقين في سبيل الله، فجاء الحكم مؤكَّدًا مقرَّرًا لمواجهة الشَّكِّ في نفوس المنافقين، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعونها. أمّا بالنِّسبة للمؤمنين؛ فقد جاء التَّوكيد لإثبات الحكم في قلوبهم قويًّا مقرَّرًا[3].

دلالةُ رضا الله عنهم بين الحقيقة والمجاز:

الإحساسُ برضا الله تعالى أعلى درجات الجزاء

"معنى رضاه سبحانه عنهم: أنَّه قَبِل طاعاتهم، وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من فضله، ومع رضاهُ عنهم؛ فقد أعدَّ لهم جنَّاتٍ تجري تحتها الأنهار في الدّار الآخرة"[4].

"ورضوان الله تعالى أكبرُ جزاءٍ على الطّاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاءَ مِن جنّات ونعيم مقيم، ثمَّ قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التَّوبة: 72]، وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا الله أعلى درجات الجزاء، ووصفهم الله بأنَّهم رضوا عنه، رضوا بتكليفاته، وتقبَّلوها بقَبولٍ حسنٍ، وقاموا بحقِّ طاعته، وأحبُّوا الله لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنَّته، بل لكمال محبَّته، وتلك هي المنزلة العليا في العباد"[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/203.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.

بلاغة العطف في: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ على قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ لبيان عظيم جزاء هؤلاء الأجلّاء المذكورين في الآية، فعدَّد جزاءهم ومثوبتهم.

مِن تمام النِّعمة امتلاءُ مَن دثَّرته النِّعمة رضًا بها واكتفاء

ويضاف إلى ذلك أنَّ الذي حسَّن العطف هنا هو المشاكلة بين الجملتين الكريمتين، واتِّفاقهما في الفعليَّة، وفي أنَّ فعلَيهما ماضيان، وأنَّه أُريد للثّانية مشاركة الأُولى في الحكم[1]، وأنَّ ترْكَ العطف سيوهِمُ أنَّ الأُولى منهما نعتٌ لكلمة ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾، وأنَّ الثّانية منهما هي الخبر، وهذا خلاف المراد، فضلًا عن مناكدته للصِّحَّة والفصاحة.

نكتةُ تقديم رضاه عنهم قبل رضاهُم عنه:

تقدَّم رضوان الله تعالى على رضاهم عنه سبحانه لنكتة بلاغية تظهر من وجهين:

إذا رضي الله عن العبد؛ أرضاه، فما جزاء الإحسان إلّا الإحسانُ؟

أحدهما: أنَّ "رضوان الله تعالى أكبرُ جزاء على الطاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاء من جنات ونعيم مقيم، ثم قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التّوبة: 72] وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا الله أعلى درجات الجزاء"[2].

والآخر: أنَّ رضاهم عن الله تعالى تابعٌ لرضا الله سبحانه عنهم؛ فقد رضوا بما أعدَّه الله ﷻ لهم من الكرامة والمثوبة التي هيَّأها لهم لرضاه تعالى عنهم، فكان ارتباطهما معًا ارتباط النَّتيجة بالسَّبب، فمن ثمَّ قُدِّم السَّبب على نتيجته المترتِّبة عليه، فإنَّ "رضاهم عن الله قضيَّةُ رضاء الله عنهم، فلولا أنَّه رضي عنهم في آزاله ... فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه"[3].

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 171، والجناجي، البلاغة الصافية، ص: 233.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/58.

بلاغةُ المشاكلة بين رضا الله عنهم ورضاهم عنه:

الجزاء من جنس العمل

المقصود برضا اللّه عنهم: تقبُّلُ صالح أعمالهم، ومغفرة ذنوبهم، وإدخالهُم الجنَّةَ، والمقصود برضاهم عنه سبحانه: شكرُهم إيّاه وحمْدُهم على نعمه، وإيمانهم به، وطاعتهم له[1]. فمعنى رضا اللّه سبحانه عنهم مختَلِفٌ عن معنى رضاهم عنه ﷻ، وإنَّما سوَّغ هذا الإطلاقَ داعي المشاكلةِ التي أفادت معنى أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ جزاء الإحسان لا يكون إلَّا الإحسانَ.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾:

من شأن الإكرام تعديدُ مظاهر الإنعام

أفاد هذا العطف تعديدَ جوانب الثَّواب، وتكثيرَ صور العطاء، فمع هذه المرتبة العليا من المكانة - التي لا تعلوها مكانةٌ، ولا ينهض إلى مثلها جزاءٌ، وهي رضا اللّه تعالى عنهم - مع هذا فقد أعدَّ اللّه لهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

معنى اللّام في: ﴿لَهُمْ﴾:

مَن لم يجعل لله شريكًا في العبادة؛ لم يجعلِ الله له شريكًا في تملُّك الثَّواب

أفادت هذه اللّامُ معنى الاختصاصِ والمِلْك، فهي جنّاتٌ ومنازلُ خاصَّةٌ بهم، قد أُعِدَّت خصوصًا لهم، وأُورِثوها جزاءً بما كانوا يعملون.

وفي هذا ما فيه من الكرامة أن يعلمَ المؤمنُ أنَّ اللّه جلَّ في علاه قد رضي عنه، ورضي عمله، وشكر سعيه، وأعطاه أجرًا وثوابًا لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه في التَّلذُّذ بنعمائه مشارك.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول:

تأكيد البُشْرى يزيد تعلُّق النَّفس بها

أفاد تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول ﴿جَنَّٰتٍ﴾ معنى الاختصاص، فكأنَّ هذه الجنّاتِ لم تُعَدَّ إلّا لهم هُم، ويضاف إلى هذا الاختصاص تعجيلُ ما يسرُّهم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3629.

فائدةُ تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

أفاد تنكير كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ شيئين: أحدهما: التَّعظيم؛ لأنَّها وردت في سياق المدح وذكر الثَّواب على العمل المرضيِّ عنه من ربِّ العالمين؛ فنُكِّرت للتَّفخيم والتَّعظيم إشارةً إلى أنَّها قد بلغت من خطورة الشَّأن حدًّا لا يُدرَكُ كُنهُه أو مداه.

التَّنكيرُ في سياق التَّبشير يفيد التَّعظيمَ والتَّكثير

الآخر: التَّكثير، فهي جنّات كثيرة، لا تحصى خيراتُها، ولا تنتهي ملذّاتها.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وقعت هذه الجملةُ موقعَ الصِّفة لكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾[1]، وقد أزالت هذه الصِّفة الإبهامَ الموجود في النَّكرة، كما أفادت تعظيمَ شأن هذه الجنّاتِ؛ ذلك أنَّ تخيُّر هذا الوصف تحديدًا ممّا يسوق إلى الذِّهن لوازمَه مِن وجود الماء الذي هو أساس في الحياة، ومِن ديمومة وجود الثِّمار والأشجار لاستمرار جري الأنهار، ومِن أنَّ الماء لا يُحمَل إلى هذه الجنّات، فيُخشَى من فواته أو نضوبه، بل هو يجري تحتها.

وصفُ المنعوت الحسَن بما يزيده حسنًا ممَّا يزيد تعلُّق النَّفس به

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿تَجۡرِي﴾:

جيء بالمضارع ﴿تَجۡرِي﴾ مسندًا إلى فاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لإفادة تجدُّد هذا الجريان واستمرارِه وعدم انقطاعه، وهذا ممّا يجعل الصُّورة حيَّةً ذات حركة دائمة تناسب النَّعيمَ الدّائم لأهل الجنَّة.

تجدُّد النَّعيم وتنوُّعُه يدفع عن النَّفس توهُّمَ السَّآمَة باعتياده

ولو قيل: جَرَت تحتها الأنهار؛ لربَّما تُوُهِّم أنَّها جَرَت في السّابق، ثم جفَّت، ولو قيل: جارية تحتها الأنهار، لتُصُوِّر ثبات الجري واستقراره، وهذا جيِّد، لكنَّه لا يضاهي في الجودة أن يُعبَّر عن الأنهار باستمرار الجري وتجدُّده، فلا يُعتاد، ولا يُمَلُّ، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع يفيد استحضار الصُّورة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

فائدة تقديم الظرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ على الفاعل:

السَّبقُ في إعلاء شأن الدّين يُعلي مكانةَ صاحبه ومكانَه في جنّات النَّعيم

أفاد تقديم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث فصل بين الفعل ﴿تَجۡرِي﴾، وفاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ - إلى جانب الاختصاص - الدِّلالةَ على عُلُوِّ هذه الجنّات المعدَّة للسّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، فمن علُوِّها جرت الأنهار تحتَها.

فلو قيل: (تجري الأنهارُ)، لجاز أن يكون موقع جريانها في أيِّ مكان من الجنَّة، ولكن لما قُدِّم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث يجيء قبلَ تمام الفائدة بذكر بقيَّة أركان الجملة؛ كان هذا قيدًا لموقع الجريان، وتخصيصًا له، فالأنهارُ تجري تحتَ الجنَّة، وهذا من كمال النَّعيم!

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجنَّة هي الأنهار الكاملة

اللّامُ هنا للعهد الذِّهني، فلم يسبق ذِكْرُ الأنهار في الآية أو السّياق، لكن سبق العلمُ بها، فقد ذُكِرَت في آيات كثيرة، وقد ورد ذكرها مفصَّلةً في سورة محمَّد ﷺ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [آية: 15].

كما أنَّ هذا التَّعريف أفاد الإشارةَ إلى عظمة المعرَّف به، فهي أنهار عظيمةٌ، قد بلغت حدَّ الكمال في الحُسن والرِّيِّ، وأنَّ كلَّ كمال وجمال في الأنهار الواقعة في الخارج، أو المتخيَّلة في الذِّهن قد استوعبتهُ هذه الأنهار، وزادت عليه، فكأنَّها هي الأنهارُ الحقيقيَّة الكاملة لا غيرها.

معنى الجمع في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

عطاء الكريم كريمٌ، وفضلهُ كثيرٌ عميم

عُبِّر عن أنهار الجنَّة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدِّلالة على كثرة هذه الأنهار بما لا يحصيه إلّا الله تعالى، وأيضًا لتناسب الجمع المذكور في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ففي كلِّ جنَّة منها أنهار جاريةٌ وعطايا غيرُ متناهية.

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة:

استيعابُ الإنعام وكماله بذكر تنوُّع صور النَّعيم وتعدُّد أحواله

وذلك في قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حيث "خالفت هذه الآية عند معظم القُرّاء أخواتها؛ فلم تُذكر فيها (مِن) مع ﴿تَحۡتَهَا﴾ في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القُرّاء، فتكون خالية من التأكيد؛ إذ ليس لحرف (من) معنًى مع أسماء الظُّروف إلّا التَّأكيدُ، ويكون خلوُّ الجملة من التَّأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوّي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ، ومِن فعل (أَعَدَّ) المؤذن بكمال العناية، فلا يكون المُعَدُّ إلا أكمل نوعه. وثبتت (مِن) في مصحف مكَّة، وهي قراءة ابن كثير المكّيِّ، فتكون مشتملة على زيادة مؤكِّدين"[1].

"والفرق بينهما أنَّ قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: معناه تجري من تحتِ الأشجارِ، وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ينبع الماءُ من تحتِ الأشجار"[2].

وعليه فإنَّ معنى (مِن) هنا لابتداء الغاية، فمعنى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ابتداء نبوعِ الأنهار من تحت هذه الجنّات[3]، وفي هذا مزيد من التكريم لأهل الجنّات.

أمّا ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا﴾؛ فمعناه أنَّ نبع الماء من مكان بعيد عنها، من جهة لا يعلمها أهل الجنَّة، ثمَّ هو يمرُّ من تحتها، ولكنَّه يأتي دون نقص، فلا يقلُّ الماء في تلك الأنهار أبدًا، ولكنَّه ليس كمن تنبع من تحتها الأنهار.

فالحاصلُ أنَّ الفارق بين القراءتين هو استيعابُ الكماليَّة في النَّص، فهاتان صورتان لجريان الماء في الجنَّة، وفيهما تفنُّن في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/24.
(3) ابن الأثير، الشافي: 1/211.

النَّعيم، فعلى كلتا القراءتَيْن نعلم أنَّ أهل الجنَّة مُكرمون أينما حلُّوا فيها، لا تفاوت بينهم في تكريم الله تعالى لهم بجريان الأنهار تحتهم، وفيه زيادةٌ لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنَّة باقٍ وخالدٌ[1].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾:

مَن خلَّد الدّين بإقامة بيّناته؛ خلَّده الله في جنّاته

وقعت جملة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ موقعَ الحال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾[2]؛ لأنَّه لمّا كان أعظم مخاوف المتنعِّمين أنْ ينقطِع عنهم هذا النَّعيم، أو تفنى هذه اللَّذَّة؛ نفاه سبحانه بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[3]، فالخلودُ حالٌ ملازمةٌ لأهل هذه الجنّات؛ وذلك "لتخليدهم هذا الدّين بإقامة دلائله، وتأسيس قواعده إلى يوم القيامة، والعملِ بمقتضاه، واختيار الباقي على الفاني"[4]، فالجزاءُ من جنس العمل.

عودُ الضَّميرِ في: ﴿فِيهَآ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ يعود على الجنّات المذكورة قبله في السّياق في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، ولا يجوز أن يعودَ على الأنهار؛ إذ الأنهار وردت في سياق وصفِ هذه الجنّات، فضلًا عن أنَّ الخلود يكون في الجنّات لا في الأنهار، وهذا ظاهر من السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالحرف (في):

أهلُ الجنَّة مسربلون بالنَّعيم، مُدَثَّرون بالرِّضا، متوَّجون بالكرامة

دلَّ التَّعبير بحرف الجرِّ (في) في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةُ تضمُّنٍ واحتواء[5]، فدلَّت على أنَّ أهل هذه الجنّات منغمسون في نعيمها انغماسًا تامًّا.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾ على الظَّرف ﴿أَبَدًا﴾؛ لإفادة

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/208، 12/7367، والبقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/21.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/486.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/93.

التَّخصيص والتَّوكيد، وأيضًا لتعجيل المسرَّة، حيث بيَّنت الآيةُ أن خلود المعنيِّين بهذا الثَّواب العظيم من الجنّات التي تجري تحتها الأنهار إنَّما سيكون في هذه الجنّات التي أُعِدَّت لهم هم، فقدَّم الجار والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ ليَلِيَ الحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون أن يفصل بينهما فاصلٌ، ولو كان هذا الفاصل هو الظَّرف الدّال على التَّأبيد، وذلك لتعجيل المسرَّة والبُشرى، وهذه مبالغةٌ في الإكرام.

مِن شأنِ الإكرام تعجيلُ المسرَّة والبشرى بالإنعام

فائدة الظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾ بعد التَّعبير بالخلود:

الأصل أنَّ الخلود موضوعٌ للتَّعبير عن الثَّبات والملازمة والمكث في الموضع أمدًا طويلًا، وأنَّ الأبد موضوع للبقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ[1].

مِن المبالغة في الإنعام طمأنةُ المكرَم بخلوده فيه على الدَّوام

ومن هنا تظهر فائدة ذكر الظَّرف ﴿أَبَدًا﴾ بعد التَّعبير بالخلود؛ إذ قد أفاد الخلودُ معنى الثَّبات والمكث، وأفاد الأبد معنى الدَّوام بلا حدٍّ، وفي هذا مبالغةٌ في طمأنة المؤمنين بأنَّهم لن يخرجوا من هذا النَّعيم، وفيه دفْعٌ لتوهُّم أنْ يأتي التَّعبير بالخلود دالًّا على طول البقاء لا دوامِه، فجاءت الآية دافعةً هذه الشُّبهة.

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالأبد أفاد أنَّه قد قُدِّر خلودُهم في تلك الجنات أبدًا من غير انتهاء، فهو لاستغراق المستقبل[2]، وهذا تأكيدٌ للمراد من الخلود[3].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لجملة التذييل:

الجنَّة هي كبرى الجوائز وأجلُّها، ولا يُعدُّ فائزًا إلّا مَن فاز بها ونالها

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأٌ وخبر، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة مستأنَفة[4]. وأوثر هذا الاستئناف دون الوصلِ لنكتة بلاغيَّة، وهي: تنبيه المخاطَب لأمر عظيم، فإن ما قَبْلَ هذه الجملة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد - خلد).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/492.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

الكريمة قد أوثر فيه العطفُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾. فحسُنَ أن يُقطع تسلسل المعطوفات لإثارة الذِّهن ولفت الانتباه إلى أنَّ هذا الذي تقدَّم ذكره هو الفوز العظيم بحقٍّ، أي: هو الذي ينبغي أن تُعَدَّ له عدَّته لنيله والظَّفر به.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

بَعُدَ السَّابقون الأوَّلون في بلوغ الذُّرى كما بعُد البدر عن ملامسة الثَّرى

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر العالي المكانة خاصَّة[1]. والسِّرُّ في إيثاره دون اسم الإشارة القريب هو "إرادةُ تكريم المتحدَّث عنه، والتَّعبير عن ارتفاع منزلتِهِ، باستعمال اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد"[2].

وقد أفاد التَّعبيرُ به في هذا السِّياق بيانَ بُعد منزلة السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسان في مراتب الفضل، وعظمِ الدَّرجة من مؤمني الأعراب[3].

معنى (أل) في: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

الفوزُ بالجنَّة هو الفوز بحقٍّ، فلا فوز وراءَهُ، ولا يُوازَن به غيرُه

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ لاستغراق صفات جنس الفوز، أي: ذلك الفوزُ المذكور هو الذي اجتمعت فيه كلُّ صفات الفوز على الحقيقة، ففيه دلالةٌ على أنَّه هو البالغ النِّهايةَ في الكمال، والغايةَ في العظمة، فهو الفوزُ بحقٍّ الذي لا فوز وراءه.

دلالةُ تعريف طرفي الإسناد:

دلَّ تعريف طرفي الإسناد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ على القصر، قصر المبتدأ على الخبر، وهذا القصر أفاد تخصيصَ الفوز بالخلود في الجنّات، وهذا للمبالغة في تأكيد المعنى وتقويته.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.

(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/423.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97.

فائدةُ وصف الفوز بالعِظَم:

كان الجزاءُ على قـدر المـجـازي لا علـى قـدر العمل، فلمثله فلْيُنصَب

أفاد وصفُ الفوز بالعظيم الإشارةَ إلى أنَّ هذا الجزاء العظيمَ - من رضوان الله تعالى عن المؤمنين، والخلودِ في جنّات النَّعيم متعدِّدةِ الثِّمار مختلفة الألوان والأنواع - هو الفوز العظيم حقًّا، فلا فوز يقابله أو يناهده، ومن ناله؛ فقد نال خير الدُّنيا والآخرة[1].

إضافة إلى أنَّه بلغ النِّهاية في العظمة؛ لأنَّه قد خلص من الكُدَرات التي تنقص حلاوة النِّعمة، أو تنغِّص اللَّذة على المتنعِّم بها، فضلًا عن أن يُوازَن بفوز الدُّنيا الذي هو - مهما بلغ ما بلغ - قليلٌ حقير زائل[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأوَّلُ والسّابقُ:

الأوَّل لا يُسبَق، والسّـابـق قد يُسبَق

الفرق بين السّابق والأوَّل: أنَّ السّابق في أصل اللغة يقتضي مسبوقًا، والأوَّل لا يقتضي ثانيًا، ألا ترى أنَّك تقول: هذا أوَّل مولود وُلِد لفلان، وإن لم يُولَد له غيره، وتقول: أوَّل عبد يملكه حرٌّ، وإن لم يملك غيره، ولا يخرج الابنُ والعبد من معنى الابتداء، وبهذا يبطل قولُ الملحدين: إنَّ الأوَّل لا يسمّى أوَّلًا إلّا بالإضافة إلى ثانٍ، وأمّا تسمية الله تعالى بأنَّه سابق؛ فيفيدُ أنَّه موجود قبل كلِّ موجود، وقال بعضهم: لا يطلق ذلك في الله تعالى إلّا مع البيان؛ لأنَّه يوهم أنَّ معه أشياءَ موجودة قد سبقها؛ ولذلك لا يقال: إنَّ الله تعالى أسبق من غيره؛ لأنَّه يقتضي الزّيادة في السَّبق، وزيادة أحد الموصوفين على الآخر في الصِّفة يوجب اشتراكهما فيها من وجهٍ أو من وجوه[3].

والسابق قد يكون مسبوقًا، وقد لا يُسبَق، أمَّا الأوَّل؛ فلا سابق

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3430.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/94.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 270، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/26.

له، فكون ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ موصوفين بـ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم قد سَبقوا إلى هذا الفضل دون أن يسبقَهم إليه غيرُهم.

الخلودُ والأبد والدَّوامُ والسَّرمد:

الخلود هو معنى بقاء المنعَّم، والأبد هو معنى بقاء النَّعيم

الخاء واللام والدّال أصل واحد يدلُّ على الثَّبات والملازمة[1]. والخلود: بقاءُ الشيء مدَّةً طويلة على حال واحدة، لا يطرأ عليه فيها تغييرٌ ولا فناء[2]. والخلود في الجنَّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها[3]. أمّا الأبد؛ فهو الزَّمن الممتدُّ الذي لا انقضاء لآخره[4]، ويدور معناه المحوريُّ حول البقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ[5].

والفرق بين الدَّوام والخلود: أنَّ الدَّوام هو استمرارُ البقاء في جميع الأوقاتِ، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت، ولذلك يقال: إنَّ الله لم يزل دائمًا، ولا يزال دائمًا، والخلود هو استمرار البقاء من وقت مبتدأ، ولهذا لم يصحَّ أن يُوصفَ الله ﷻ بالخلود، كما وُصِفَ بالدَّوام[6].

وأمّا السَّرمدُ: فهو دوام الزَّمان واتِّصالُهُ من ليل أو نار، وقيل: السَّرمد: الدّائم الذي لا ينقطع[7]. ومعناه المحوريُّ: الدّوام الزمنيُّ، ورأى ابن فارس أنَّ الميم زائدة، فأعادها إلى السَّرْد، أي: إنَّ فيه معنى الامتداد والتَّوالي، وهذا امتداد وتوالٍ زمنيٌّ[8].

وأهل الجَنَّة لا يصيبهم فسادٌ ولا فناء، وهم مقيمون في الجنَّة إقامةً دائمة بلا حدٍّ؛ لذا أُوثِر لفظا الخلود والأبديَّة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/53.
(3) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (خلد).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/53، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أبد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239، والرّاغب الأصفهاني، تفسير الرّاغب: 5/507.
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).

الفوزُ والفلاحُ:

الـفـوز يـكـون بعبور وتجاوز، والـفـلاح يكون بشَقٍّ ونفاذ

الفرق بينهما: أنَّ الفوز يدور معناه المحوريُّ حول عبور مسافة قفر جافَّة بالغة الامتداد[1].

أمَّا الفلاح؛ فيدور معناه المحوريُّ حول الشَّقِّ والنَّفاذ[2].

فممّا سبق يتبيَّن أنَّ الملحظ في الفوز هو العبور والتَّجاوز، أمّا الملحظ في الفلاح؛ فهو الشَّقُّ والنَّفاذ؛ لذلك يقال لمَن وصل أوَّلًا إلى نهاية المسابَقة: فاز بالمسابَقة، ولا يقال: أفلح بها؛ لِما في الفوز من معنى العبور.

ولَمّا ذُكِر في الآية كلمات مثل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾، ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾، وهي كلمات تدلُّ على السَّبق المتضمِّن عبورَ مسافة وعرة، وصِعاب خطرة لمّا كان ذلك كذلك؛ أُوثِر ذِكرُ الفوز دون الفلاح؛ فالقوم قد سبقوا إلى الإيمان بالله ﷻ، وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر، وعبَروا طريق الهجرة، وتسابقوا إلى نصرة النَّبيِّ ﷺ، واجتازوا وِهاد الكفر، وقِفار الشِّرك، ومفاوز الإلحاد، إلى حياض الإيمان، ورياض الجنان، ففازوا بالنَّعيم والرِّضوان.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلح).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»